لعبة الطائرات الورقية

بقلم فاروق منيب

في ذلك الصباح كنت خالي البال . نحيت همومي المزمنة الى حين . أشع على طيفه الاخضر يتسربل بالذكريات . نفضت يدي من الطعام . هدأ سخطي . القادم الشفاف يكره الضجة المفتعلة . كان وهو صغير يحب الرسم ، يحلو له ان يصور الطبيعة ووجـــوه اصدقائه المخلصين . يهوى الالوان الزاهية مثل الورود . ما زالت كراسته بين دفاتري القديمة ، لم تؤثر فيها السنوات بعد ! كنت أنفض عنها الغبار لاقلب صفحاتها ، ارى ملامح طفولتنا . تضيـــع الاحداث واللحظات ، وتبقى كراسة عصام في قلبي وبين يدي ، أشم رائحتها العطرة . همس لي برفق :

ـ وحشتني ...

ـ وحدي ؟!

ـ بل وحشتني ايام المذاكرة قبل الصيف !

ـ والشعر ؟!

ـ أشتاق الى قراءة شعر ناظم حكمت كالعادة !

ـ وأيام هوايتك للرسم ؟

ـ أيام مضت ... نحن في الحاضر الملتهب !

ونظر الى مجموعة الجرائد أمامي. امسكواحدة واخذ يتصفحها، ثم تركها كما كانت . عبس وجهه اللطيف بغضب رقيق لا يخلو من هم دفين في اعماقه . سقطت حزمة من ضوء الصباح على جبينـــه ، ففير مكانه . اصبح في مواجهتي . عيناه في عيني . دق قلبـــي في صدري من الفرح . لا أصدق . عصام الذي غاب عني قهرا يزورني الآن بهذه السهولة . صمت مكتئبا . نمّت تقاطيعه عن فورة داخلية يريد ان يفضي بها . لم يعد يستطيع ان يتحمل . اردت ان أعـاود معه حديث الذكريات ، فأشاح بيده رافضا . امسك بجريدة اخرى ، ثم اسقطها من يده وهـو مغيظ . تمايلت اغصان شجرة عاليـة مـن نافذتنا . هبت علينا نسمة هواء لطيفة فقلت :

ـ من زمان وانت من هواة الربيع يا عصام !

ـ لم أعد أشعر بأيامه ..

ـ وقصة حبك القديمة .. أنسيتها ؟!

ـ ليس في انفي غير رائحة البارود الآن !

انحدرت دمعة ساخنة على خدي . منذ عامين خرجت القريـــة كلها لتوديع عصام . النساء كن على اسطح البيوت ينتحبن ، والرجـال صامتون عاجزون . تخوض ارجلنا في التراب المختلط بروث البهائم . عاد عصام الى منبعه . كان الحر قائظا في ذلك اليوم من ايام يوليو الطويلة . الهاموش فوق رؤوسنا والسواقي ترسل انينها العتيق . ضاقت مسيرتنا على حافة الترعـة حتى كادت الجنازة ان تتـوقف . هتف شيخ في الخلق الكثير :

ـ افسحوا الطريق يا رجال ..

وفي اللحظـة الاخيرة جمد كـل شيء . ساد صمت القبـــور ، ثم انشقت الصدور بالبكاء ، فاستراحت النفوس ، وعدت منكسر الجناح ، أتذكر لعبة الطائرات الورقية التي كنا نلعبها ونحـــن صغار . كان عصام مغرما بها . يصنعها بيديه ، يطيرها بالساعات ، يحلق معها في السماء . ولما كبر حقق حلم طفولته . ركب طائـرة حقيقيـة . اصبحت اللعبـة هما من همومه الابدية . ولعـب لعبـة الموت بقلب الطفولة . تلقى الاوامر بالهجوم . ارتجف زملاؤه خشية عليه . ابتسم في وجوههم . عاودته شقاوة الطفولة النقية . شرب جرعة ماء ثم طار . وعلى احد المواقع سقط بطائرته . الآن يعود اليّ مقطب الجبين . ضاعت من ملامحه زهـــوة الطفولة العذبة . اري اصابة على جبهته العالية . اكتسبت تقاطيعه خشونة .

فاجأني بالسؤال :

ـ ماذا فعلتم ؟!

ـ في أي شيء ؟

قال وهو يركز نظرة اليّ :

ـ تراوغني !

قلت :

ـ أبدا والله ...

قال :

ـ كن صريحا ...

قلت :

ـ اولادك بخير ...

قال :

ـ انا لا أسأل عن اولادي .

ـ اذن عمن تسأل ؟!

ـ يعني .. لا فائدة من الكلام ..

ـ ما الذي يحزنك ؟!

ـ اشياء كثيرة .. تعرفها جيدا ..

وخرجنا نتجول في الشوارع . كانت المدينة تحتفل بعيد الربيع . الحدائق مكتظـة بروادهـا . وعلى شاطيء النيل كـان الناس يتجمعون.

انه سباق النيل الدولي . خمسون سباحا عالميا يتبارون في السباحة . مكبرات الصوت تعلن بدء السباق . الاعلام ترفرف على المراكب الصغيرة . ارض الجزيرة اخذت زينتها . اطفال وشيوخ ونساء لا حصر لهم يهتفون لتماسيح النيل الابطال . زالت تقطيبة عصام . حلت محلها اطياف سعادة فرحة . حلقت بعض الطائرات الهليكوبتر تلتقط صور المتسابقين . رمقها عصام بحنين قديم . فاز خمسة من سباحينا بالمراكز الاولى في السباق . اخذت النشوة الجماهير ،راحت تصفق وتزغرد وتضرب الارض باقدامها الثقيلة . يحلق المصورون ورجال الصحافة والتليفزيون حولهم ، كل واحد يتمنى ان يفوز بلقطة او كلمة او ابتسامة أو لمسة من اطراف اصابع احد الابطال . وعزفت موسيقى الانتصار الكبير تتجاوب في السماء ، ثم حملت الجماهير الفائزين على الاكتاف ، وبدأت المسيرة في شوارع المدينة .وقبل ان نودع الضجة اللذيذة ، همست لعصام :

ـ مالك ؟

أومأ خجلا :

ـ لا شيء !..

ـ هل يعاودك العبوس ؟!

ـ لا ... أبدا ...

وهرب بنظراته بعيدا الى الشاطىء الآخر تتنيل ، ثم أضاف :

ـ أزعجتك ؟!

رمقته بحنان :

ـ بل يؤرقني حزنك !

قال :

ـ لي مشاكلي ...

ـ وهي مشاكلي أيضا .

ـ لا ... أنتم تعيشون في واد ... ونحن نعيش في واد آخر. كلماته تنفذ الى قلبي . يؤلمني . تعيدني الى همي وكآبتي . لن أهرب من صدقه . أعرف رقته منذ الطفولة . كان له خروف صغير ، ذبحه أبوه في العيد الكبير ، فظل حزينا عليه أياما ، لا يضع طعاما في فمه . ولما كبر كان يكره لون الدماء ، يهرب حين يشم رائحته ، لكنه كان يهوى لعبة الطائرات الورقية . اجتذبته وهو كبير ، فكانت طريقه الى النهاية . الآن يزورني للاطمئنان . سلواه ان يعرف طريقنا الجديد . أتلعثم أمامه . تضيع الكلمات في لساني . أحاول ان ارسم له بعض معالم الصورة . بل هو رسم الصورة .

ثار عليها ، فحلق بطائرته يريد ان يحطم ركودها الابدي . انطفأ في قلبه نبض الدماء ، فازداد لهيب الارض المشتاقة للحرية .

علت وجهه سحابة كدر حقيقية كادت تطفىء على ملامحه الشفافة . خطفته ابتسامة من بين شفتيه . حلق بعينيه مرة اخرى الى شاطىء النيل من الناحية الاخرى . كان هناك سرب لطيف من الطائرات الورقية تتقافز فوق صفحة المياه الزرقاء على علو شاهق . لمحت أذرع الاطفال تمسك بخيوطها فرحة سعيدة . زال كدر عصام . رأيت ابتسامته تفرش وجهه من جديد . لوح بكلتا يديه القويتين الى الاطفال على الضفة الاخرى :

ـ هيا يا أطفال ... حلقوا الى عنان السماء !

وفي لحظة غاب عني طيفه . كانت أصداء سباق النيل ما زالت في نفسي ، وبقايا حزم الناس تتفرق في اتجاهات مختلفة . لم أخفض بصري عن تلويحة يديه الحارتين بعد أن غاصت في لهب الشمس الحارقة .

القاهرة — فاروق منيب

المسافر

« وقال في المخاطرة جزء من النجاة .. وجاء الموج فرفع ما تحته .. وساح على الساحل » .
النفري ـ موقف البحر

مضيت وفي الصدر حشرجة الاحتضار
وندّت عن القلب صرخه
فيصطك وجهي بوجهك
وأحلم اني مقيمٌ لديك ..
عبرت المحيط اليك
وفتشت تأريخ أهلي وأهلك
فلم أر غير تقاطيع وجه بلا ذكريات
وما كان في الظل غير السيوف الصديئه
تسوّلت في باب قصر الاماره
وجعت .. وحاربت في خنجري الخشبي
وغامرت في التيه .. في الشعر ،
دنّست مجد العبّاره
وخاطرت ابحث عن مجدك المستبد
وكنت أغني ..
وضعوا جبهتي موطئا للمرافىء
أطفأوا جذوتي ، فأحببت فيهم شموخي
لغة النار ، حين يخرس صوت الاغاني
ويغرق في غضب الكبرياء
فيا بؤساء الخليقه ..
صافحوني .. أجل صافحوني
فاني عرفت الحقيقه

★

ومعذرة أيها المتعبون
أتيت أراهن في محنتي
أمزق ارث الحضارة .. مجد هياكلنا المستبده
اتيت وفي فمي الماء .
خذوا ثروتي عالما يشرق الحب فيه
ويندى عن مفرقيه غبار الاماني
خذوا فرحي
خفقة الماء والنار يحضنها الكبرياء
رحلة في الخريف الى التيه ، وأغنية في الشتاء
وأنا استعير لهاث الجزيره
لامنحكم دفئها .. صوت اهلي الذين اضاعوا
فتى مزقته سيوف العشيره ..

بغداد — عبد الامير جعفر